الثقافة الشعبية الجزائرية وتاريخ العناية بها

الثقافة الشعبية الجزائرية

يثير مفهوم الثقافة الشعبية جدلا واسعا بين الدارسين بسبب تدخل مفهومه مع المفاهيم أخرى تحمل نفس تسميات مغايرة مثل: التراث الشعبي، الموروث أو المأثورات الشعبية، الفلكلور وغيرها من المصطلحات التي تشير لنفس المواد الثقافية لكنها تحمل معاني وإيحاءات لها حقولها الدلالية الخاصة.

يعرفها عبد المجيد بورايو بأنها : مجموع الرموز والأشكال والتعبير الفنية والمعتقدات والتصورات والقيم والمعايير والتقنيات والأعراف والتقاليد والانماط السلوكية التي تتوارثها الأجيال، ويستمر وجودها في المجتمع بحكم تكييفها مع الأوضاع الجديدة واستمرار وظائفها القديمة، أو إسناد وظائف جديدة لها.[1]

فالثقافة الشعبية تضم كل ما خلفه الجداد في الماضي من نتاجات زاخرة في مجالات الأدب والدين والفكر فنقول التراث الانساني، التراث الأدبي، التراث الشعبي، ويشمل كل الفنون والمأثورات الشعبية من شعر وغناء وموسيقى ومعتقدات شعبية وقصص وحكايات وأمثال تجري على ألسنة العامة من الناس وعادات اجتماعية مختلفة ومما تتضمنه من طرق موروثة في الأداء التقليدي ومن ألوان الرقص والألعاب والمهارات.

ليتبادر الى الذهن أن الثقافة الشعبية هي تمثلات لأقوال وأفعال وممارسات وسلوكيات الجماعة فهي قيم تشكل الحس المشترك العام الذي ينطلق منه أبناء المجتمع الشعبي ويتوارثها من جيل الى آخر هي أشكال تعبيرية سواء كانت شفوية كالأغنية التي تغنيها النساء في الأعراس وأغنيات تنويم الأطفال، أم كانت كتابية تتمثل في الأدب الشعبي كالأمثال والحكم، وهي أيضا تشمل المعتقدات والتصورات والعادات والتقليد المتوارثة .

يحيلنا مفهوم الثقافة الشعبية لأمة ما مباشرة الى الهوية والخصوصية الثقافية لأنها تمثل شخصية الفرد وذاته، والفرد بذاته هو وليد هذه الثقافة التي ساهم في صنعها ففرد بلا ثقافة شعبية ولا تراثفرد بلا هوية وبلا ماضي ولا مستقبل.

يمكننا ايضا أن نعرفه بأنه: مصطلح شامل نطلقه لنعني به عالما متشابكا من الموروث الحضاري والبقايا السلوكية والقولية التي بقيت عبر التاريخ وعبر الانتقال من بيئة الى بيئة ومن مكان الى مكان في مكان ما في الضمير العربي للإنسان المعاصر ، وهو لهذا يضم البقايا الاسطورية أو الموروث الميتولوجي بالمعنى القديم كما يضم الفلكلور النفعي أو الفلكلور الممارس سواء ظل على لغته الفصحى أو تحول الى العاميات المختلفة السائدة في كل بيئة من هذه البيئات[2] ،وهنا نلتمس مضاهاة الثقافة الشعبية في المعنى المصطلح التراث الشعبي.

تاريخ العناية بالثقافة الشعبية الجزائرية

مرت العناية بالثقافة الشعبية الجزائرية في تاريخها بمراحل معينة سنحاول التعرف على أبرز هذه المراحل:

---

[1] عبد الحميد بورايو ، في الثقافة الشعبية الجزائرية، الرابطة الوطنية للأدب الشعبي للكتاب الجزائريين، دار أسامة للطباعة والنشر، د ط، د س، ص 07

[2] فاروق خورشيد ، الموروث الشعبي ، دار الشروق ط 01 1992 ص 12

أولا: عناية المؤسسة الاستعمارية:

إثر نزول القوات الاستعمارية الى الجزائر كان من الضروري على المستعمر أن يدرس عقلية الخصم فقد كان هناك حاجة لمعرفة سكان المراكز التي تمكن الاحتلال عسكريا ، لخدمة استراتيجيته العسكرية فبدأت تظهر الدراسات التي تتناول الحياة الشعبية في هذه المراكز والتي كان يقوم بها العسكريون أنفسهم، لفهم طبيعة الجزائريين ومن ثمة إحكام السيطرة عليهم. إذ قام ضباط عسكريون بتسجيل مواد الثقافة الشعبية من أفواه أهلها وتسجيلها ودراستها ، عن طريق أكثر المناهج استجابة للغرض النفعي وتحولت الاثنوغرافيا العسكرية الإستراتيجية التي رسمتها الإدارة الفرنسية الى انتربولوجيا تكتيكية على حد تعبير بورايو، حيث الهدف في هذه المرحلة هو تكريس الدراسات العلمية وجعلها في خدمة الإدارة الفرنسية فعملت على انشاء هيئات علمية تقوم بالمهمة مثل: الجمعية الجغرافية، الجمعية التاريخية الجزائرية وغيرهما، قبل الحرب العالمية الأولى وقد ظهرت ابحاث من قبل ضباط عسكريين وباحثين اكاديميين:

الضابط العسكري والاكاديمي	**كتاباته**
أ.دو نوفو	تكلم فيه عن أعضاء الطريقة ومعلوماتهم وملاحظاته عليهم
ك.ترومولييه	الأولياء الصالحين بالجزائر وأضرحتهم والمعتقدات المتصلة بهم
ألكسندر جولي	نشر بحوثا في المجلة الافريقية عن الاولياء الصالحين
روني باسيط	كتابه تضمن قصصا عن الولي الصالح سيدي أحمد بن يوسف
م.دوماس م.فابار	روجا في كتابتهما للفكرة البربرية وانتهيا الى ان القبائلي والعربي مختلفان في العادات والتقاليد والذهنية والقبائلي أرقى من العربي
باربي	قارن بين المرأة القبائلية والمرأة العربية
أ.بوردو	كتب عن القبائل والعرب مستنتجا أن ليس هناك إلا بربري هو الان نصف متحضر
إدموند دوتي إدموند فيليكس غوتيي	اللغة البربرية تتراجع وهي في طريقها للاندثار
جان ديسبرميه	أكد أن المادة الفلكلورية بصفة عامة هي نفسها في مختلف مناطق البلاد وأن العادات والتقاليد المتعلقة بدورة الحياة تتشابه في كل مكان

أما في فترة ما بعد الحرب العالمية الاولى فالأدب الشعبي نال حظا ضئيلا من الاهتمام، ورغم محاولات الباحثين الاكاديميين والضباط العسكريين من البحث في مجال الأدب الشعبي بمختلف أشكاله ، فالدراسات ظلت تدور في حلقة ضيقة ولا تواكب تطورات البحث في التراث الشعبي عامة والأدب الشعبي على وجه الخصوص.

ثانيا: عناية المؤسسة الثقافية الوطنية: في نهاية عهد التركي ومستهل العهد الاستعماري ، أي نهاية القرن 18 وبداية القرن 19 نشطت حركة علمية لبعض المثقفين، اعتبرت هذه الحركة هي الوجه الرسمي للمؤسسة الثقافية الجزائرية تحدث عنها المؤرخ أبو القاسم سعد الله قائلا: ثم شهد القرن الثاني عشر م وأوائل الثالث عشر حركة قوية في صفوف العلماء والعناية بالتعليم وكثرة التأليف، ففي أواخر القرن المذكور بدأت حركة نشيطة بتشجيع التعليم والعناية بالأوقاف

والاهتمام بالعلماء والكتب.... ولولا الاحتلال الفرنسي لأخذت تلك الحركة في التوسع والنمو، ولسبقت الجزائر أخواتها بالنهوض والتخلص من ظاهرة الجمود. وفيما يلي أهم الأبحاث في مجال التراث الشعبي من قبل مثقفي الجزائر:

الباحث	عنوان الكتاب	المجال	المحتوى
عبد الرزاق بن حمدوش (1200-1107)	**كشف الرموز**	**الطب الشعبي**	**يحتوي الكتاب على ألف مادة تشتمل على أسماء الأمراض والأدوية المعروفة في الجزائر**
حمدان خوجة	**مخطوط عربي ضائع لم يطبع يحملل عنوان : المرأة ترجم باللغة الفرنسية عنوانه Aperçu et statistique sur la régence d'Alger**	**عادان المسلمين وأخلاقهم**	**يمثل مرافعة دفاع عن أخلاق المسلمين وعادات الجزائريين اتجاه الغزاة الفرنسيين من العسكر الذين جاؤا الى الجزائرليقوضوا صرح مجتمعها.**

وفي نهاية القرن 19 والنصف الاول من القرن العشرين ظهرت جهود بعض المثقفين الجزائريين رغم تكونهم على يد الفرنسيين في مدرسة المعلمين ببوزريعة بالجزائر، الا انهم اهتموا بالتراث الشعبي الجزائري ودرسوه بموضوعية ، وسيتم التوضيح في هذا الجدول أهم الباحثين وجهودهم في فترة العهد الاستعماري:

الباحث	جهوده في دراسة التراث الشعبي
عمار بوليفة	تفرغ لدراسة اللهجات البربرية وآدابها
محمد بن شنب	تخصص في التراث العربي الاسلامي اهتم بالامثال الشعبية وأفرد لها كتابا كتب عن اللباس الشعبي كتب عن بعض التقاليد في القصبة بالعاصمة
سعد الدين بن شنب(ابن محمد بن شنب)	اعتنى بأشكال التعبير الشعبية والتقاليد والتقاليد ونشر حولها دراسات في المجلة الافريقية

الا أن ما قاموا به من دراسات لا يواكب الدراسات العالمية حينها، لأنهم من الناحية المنهجية لم يتجاوزوا رق البحث السابقة ولم يستفيدوا من التطورات المنهجية التي عرفتها العلوم الاجتماعية في أوروبا في هذه الفترة .ثم بعد الحرب العالمية الاولى تشبع الكتاب والادباء بالحماس الوطني فابدوا تعاطفهم مع انتمائهم لشعبهم وتراثه الروحي من خلال كتاباتهم ومن هؤلاء مولود فرعون، محمد ديب، محمد راسم وغيرهم، حيث نرى انعكاسا واضحا لاهتمامهم بمواد الثقافة الشعبية، كالألغاز والتقاليد والطقوس والأغاني التراثية وغيرها

مع مطلع الاستقلال عرفت مؤسسات الدولة الجزائرية يمنة توجهين ثقافيين أساسيين كان لهما دور كبير في قيادة وتسيير حركة التحرر الوطني وهما الحركة الاصلاحية الدينية، وحركة المفرنسة ولم يكن لأي منهما اهتمام بالثقافة الشعبية الجزائرية خاصة في فترة الستينات والسبعينات من القرن الماضي، غير ان هذا الاهتمام لم يكن منقطعا وأنما قابله جهود قليلة ومن هيئات معينة نوضحها في ما يلي:

الهيئة	نشاطها في الاهتمام بالثقافة الشعبية
مركز الابحاث في الانتربولوجيا وفي عصور ما قبل التاريخ والاثنولوجيا 1953	ظل يصدر مجلة ليبيكا المهتمة بالدراسات الشعبية . يرسل ببعثاته نحو مناطق الهقار والصحراء في منطقة الجنوب الغربي مهتما بالحفريات والنقوش في الجبال الصخرية وبالأدوات المنزلية وبالفخار
الاذاعة الوطنية	استحدثت بعض البرامج التي تعنى بالموروث الشعبي الشفوي مثل الشعر الملحون والامثال

وزارة الثقافة	اصدار مجلة آمال حيث صدر عدد خاص بالشعر الملحون 1969 استحدثت المكاتب السياحية خاصة في المدن الكبرى بالجنوب، لتكون همزة وصل بين الدارسين الخارجيين ومواطني المدينة وعن طريقا يتم التعرف على المرشدين . أوكلت مهمة رعاية الفرق الغنائية الشعبية وفرق الرقص للبلديات واستدعائها لتمثيل مناطقها وكذا التمثيل الوطني في المهرجانات
الجامعة الجزائرية	في الستينيات وبداية السبعينيات ظلت بعض المواد الاثنولوجيا مبرمجة في قسم علم الاجتماع في السبعينات تم الغاء مادة الاثنولوجيا باعتبارها موروث استعماري ، واستحدثت مادة الادب العبي كمادة ضمن التخصص اللغة العربية وآدابها إلى يومنا هذا.